

الفصل التاسع  
الصوفية وطريق الإرتقاء الروحي



تختلف الآراء في أصل تسمية الصوفية، حيث يعيدها البعض إلى إسم أهل  
الصفة، وهم مجموعة من المساكين الفقراء الذين كانوا يقيمون في المسجد  
النبوي الشريف ويعطيهم الرسول (ص) من الصدقات والزكاة طعامهم ولباسهم.  
لكن الرأى الأرجح يعيد التسمية ببساطة إلى الصوف الذى كان الزهاد يلبسونه  
تقشفًا وزهدًا بالحياة. ولكن توجد آراء أخرى في هذا الموضوع، فإن الجوزى  
في كتابه تلبس إبليس ينسب الصوفيين إلى (صوفة بن مرة) والذى نذرت له  
والدته أن تعلقه بأستار الكعبة، فأطلق إسم (صوفى) على كل من ينقطع عن  
الدنيا وينصرف إلى العبادة فقط. ولكن أرجح التسميات ما اختاره طائفة كبيرة  
من العلماء من ان هذه التسمية ترجع إلى الصوف حيث كان شعار رهبان أهل  
الكتاب الذين تأثر بهم الصوفيين الأوائل. يظهر الفكر الصوفى بارزًا فى أقوال  
الحارث المحاسبى، والذى يعتمد على مقام الإحسان المذكور فى السنة،  
وهو أن تعبد الله تعالى كأنك تراه، ولهم فى ذلك تعريفات مفيدة ومن حيث  
الإصطلاح يجمع علماء التصوف فى كتبهم ما يقارب الآف من التعريفات التى  
تضع له الحدود وترسم له المعالم وتفسره وتشرحه وتأصله وكلها يدور حول  
تزكية القلوب، بمعنى تطهيرها من جميع ما يتعلق بها من الأسباب والعلائق  
الدنيوية والنظر للأمور من حيث لا وجود مستقل بذاته عن الله، ولا قدرة  
لإنسان ولا قوة إلا من حيث يسر الله له وهذا يقودهم لمبدأ ألا وجود حقًا  
سوى لله. لكن نقطة الخلاف مع بعض الفرق الإسلامية الأخرى تكمن فى  
مدى شرعية الطرق والأدوار التى يمارسها المتصوفة.

## الطرق الصوفية

تؤلف الصوفية مجموعة من الطرق والأذكار التي يتلوها المرید في أوقات مختلفة حسب توصيات مشايخ الطريقة بغية تنبيه النفس وتطهيرها ليرتقى في المراتب الروحية التي يمكن أن توصله إلى درجة الولاية. الصوفية أو التصوف ليست دين أو مذهب، إنما هي منهج أو طريق يسلكه الإنسان للوصول إلى الحقيقة الإلهية كما يعرفها أصحابها. أما معارضها فيعتبرونها ممارسة تعبدية لم تذكر لا في القرآن ولا في السنة ولا يصح إى سند لإثباتها، وعلية فهي تدخل في نطاق البدعة المحرمة.

تقوم الصوفية على فكرة الولاية، حيث يعتبر الولي عارفاً بالله الذي يمنحه كرامات تماثل معجزات الأنبياء مثل شفاء المرضى وكشف الغيب. وهذا ما عرضها في بداية القرن الماضي لهجوم المثقفين في الغرب بإعتبارها ممثلة للثقافة الدينية التي تنشر الخرافات. ثم بدأ مع منتصف القرن الماضي الهجوم من قبل أتباع المدرسة السلفية بإعتبارها بدعة دخيلة على الإسلام.

انتشرت حركة التصوف في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقاً وممارسات مميزة معروفة بإسم الصوفية. ويتوخى المتصوفة تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الحقيقة الإلهية بالكشف والمشاهدة والتأمل.

## النشأة والتاريخ

إن الصوفية مثلهم مثل أى فرقة إسلامية أخرى تأخذ مرجعيتها من العصر النبوي الذي يعتبر المرجع الأساسى الشرعى في مجمل التاريخ الإسلامى. وبالتالي فإن كل طريقة صوفية تربط أوراها بسند رجال يعيدها إلى أحد

الصحابة أو إلى الرسول (ص) بذاته. فى الحقيقة إن مصطلح الصوفية لم يظهر إلا فى بدايات القرن الثالث الهجرى ولكن جذوره يمكن تتبعها قبل ذلك.

بشكل عام يمكن القول أن معظم الحركات الفكرية والسياسية فى الحضارة العربية الإسلامية تعود لإمتزاج عدة عناصر مختلفة تواجدت فى منطقة المشرق العربى الممتد من منطقة الرافدين إلى وادى النيل. فإضافة إلى العنصر الإسلامى الأصيل الذى يتألف من النصوص الشرعية والعادات الاجتماعية التى جاء بها الإسلام، يوجد بقايا الموروث الجاهلى الذى بقى كامناً والموروث الفارسى المتمركز أساساً فى بلاد الرافدين والموروث اليونانى الرومانى إضافة إلى الموروثات من الشعوب المحلية السامية وغير السامية فى هذه المنطقة الواسعة التى شهدت مع العصر الذهبى للدولة العباسية عصر تدوين شمل إندماج هذه الثقافات أو صدامها.

من هنا ينطق هذا التركيب على نشأة الصوفية التى بدأت كسلوكيات عامة يغلب عليها طابع الزهد فى الدنيا والطمع بالآخرة: تندرج هذه السلوكيات ضمن تيارى زهد رئيسيين:

١- تيار يمثله إئمة من أهل السنة والجماعة تميل إلى تفضيل نصوص الترهيب والترغيب وتحض على الزهد فى الدنيا (يمثله الحسن البصرى والحارث المحاسبى).

٢- تيار ذو أصول فارسية يعتبر إحياء لموروث سلوكى فارسى قديم، يعتمد على هجر بعض الناس للدنيا فى سبيل تحقيق زعامة دنيوية والحصول على أتباع ومؤيدين (أهمهم حبيب العجمى الفارسى).

ثم ظهر تيار فى الكوفة ذو توجه فكرى ذو جذور عرفانية أو ما يدعو «بالقنوصية»، وأهم رواده (جابر بن حيان وأبو هاشم الصوفى)، إلا أن هؤلاء الرواد لا يمكن حسابانهم ضمن التصوف الإسلامى. ومن رواد التصوف أيضًا

ضمن تيار الزهد الإسلامى هو (الجنيد أبو القاسم بن محمد) والذي توفى عام ٢٩٧ هجرىاً، والذي كانت له آراء خاصة فى التوحيد والنفس، ثم ظهر (منصور الحلاج) الذى كان أول من صرح بالحديث عن الإتحاد والحلول، لتتغمس الصوفية بعدها فى الغنوصية، وتعمق فيها.

شهدت الصوفية بعد ذلك قفزة جديدة بالتحول الجذرى عند «الإمام الغزالى» الذى تحول من مدرسة المتكلمين إلى المدرسة الصوفية، وكان كتابه (إحياء علوم الدين) محاولة لتأسيس العلوم الشرعية بصياغة صوفية، تلاه إعتقاد الكثير من الفقهاء أبرزهم «عبد القادر الجيلانى» للصوفية كطريقة للتربية الإيمانية، ويبدو أن الجيلانى وتلاميذه الذين أنتشروا فى كافة بقاع المشرق العربى عادوا بالتصوف إلى الجذور الإسلامية بالتركيز مرة أخرى على تعليم القرآن والحديث مقتدين بأشخاص مثل «الحارث المحاسبى»، والدليل على ذلك أن «ابن تيميه» رغم الهجوم الضارى الذى شنه على الصوفية فى عصره، يمتدح أشخاصاً مثل الجيلانى وأحمد الرفاعى. وينسب بعض المؤرخين لهذه المدارس الصوفية المنتشرة دوراً كبيراً فى تأسيس الجيش المؤمن القوى الذى ساند «صلاح الدين» فى حربه ضد الصليبيين.

بعد حكم الأيوبيين مباشرة، عادت الصوفية للأفكار الفلسفية الميتافيزيقية التى تأسست أكثر وترسخت ضمن الصوفية على يد «محيى الدين بن عربى» الذى قام فى كتبه وأهمها (نصوص الحكم والفتوحات المكية) بتدليل الكثير من المعارف والتى كانت عصية الفهم فضلاً عن إثبات مطابقتها للشرع.

## الفكر الصوفى

رغم الإستناد المباشر والصريح لكتب الصوفية على الأصول الشرعية لأهل السنة من قرآن وأصول سنة فى تدعيم أفكارها، فإن الباحثين فى بنية الفكر

الصوفي يلاحظون دائماً تشابهاً بين الفكر الصوفي والفكر الشيعي، وكثيراً ما يلجأون للمقارنة بين إمام الشيعة وولي الصوفية.. فولي الصوفية يرث العلم عن الأنبياء، وهو الذي يملك الحقيقة تماماً مثل الإمام الشيعي. حتى أن بعض كتب الصوفية تمنح الأولياء عصمة مشابهة لعصمة أئمة الشيعة، لكن هذا التشابه غير مستغرب عندما نعرف أن هذه الأفكار تأتي أساساً من منبع واحد يتمثل في الأسرار الغنوصية الوفانية أو ما يعرف بالهرمسية، وتكتمل بناء هذه الأفكار الغنوصية عند الصوفية بشكل ملفت في كتب «محي الدين بن عربي» الذي يتحدث في كتبه عن العوالم السبعة التي يقوم البعض بتشبيهها بنظرية الأفلاك أو العقول السبعة عند أخوان الصفا الإسماعيلية.

هذا الأمر أيضاً هو ما يدفع بعض الباحثين لاعتبار الصوفية المنافس السني للشيعة على الأفكار الغنوصية، وهذا ما يشرح العداء في البدء بين الصوفية والشيعة، فالصوفية أيضاً نافست الشيعة في الإنتساب لآل البيت وتشريفهم معطية اعتباراً كبير للإمام علي وأولاده.

## العبادات والطرق الصوفية

### طرق الصوفية

تعتمد الصوفية بشكل عام على مجموعة ممارسات تقوم على نبذ الدنيا والعمل والتفرغ التام للطاعة والعبادات بالإضافة إلى مجموعة من الأوراد والأذكار يتوارثها الصوفيون من شيخ إلى آخر، وإتباع شيخ شيء أساسي في الفكر الصوفي (من لا شيخ له فالشيطان شيخه) ومن أهم الطرق الصوفية:

١ - الطريقة النقشبندية وتنسب إلى بهاء الدين نقشبند.

٢ - الطريقة الجعفرية وتنسب إلى الشيخ صالح الجعفرى الحسينى شيخ الأزهر الشريف.

- ٣- الطريقة الرفاعية والتي تنسب إلى الشيخ أحمد الرفاعي.
- ٤- الطريقة القادرية وتنسب إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني.
- ٥- الطريقة الشاذلية وتنسب إلى الشيخ ابي الحسن الشاذلي.
- ٦- الطريقة التيجانية.

٧- الطريقة الأحمدية وتعرف أيضًا بالبدوية، نسبة للسيد أحمد البدوي الحسني المدفون بطنطا.

### التربية الصوفية

تركز المدارس الصوفية بشكل خاص على مبادئ تربية الروح والنفس وتنمية روح المراقبة والمحاسبة عند الأفراد، كما تستفيد من كثير من الطرق الجماعية لممارسة العبادة لتقوية الأواصر بين أتباع الطريقة المرادين، هذا التركيز على الممارسات العبادية الجماعية والشعور بالسعادة من جراء التقرب من الله يجذب الكثير من الناس بما يمنحه لهم من إطمئنان نفسى ويجعل الصوفية ذات شعبية كبيرة، لذلك كان للصوفية دورًا كبيرًا في نشر الإسلام لاسيما في المناطق البعيدة مثل أفريقيا حيث تمتلك الصوفية مرونة تمكنها من إقتباس بعض الممارسات والطقوس المحلية الأفريقية.

تقوم الكثير من الطرق الصوفية بتشكيل أساس التنظيمات الاجتماعية في الكثير من الدول الإسلامية، وهي إن قل نفوذها في معظم الدول العربية إلا أن تأثيرها في مناطق مثل الهند وباكستان ومعظم الدول الأفريقية المسلمة مازال كبيرًا.

### مصادر التلقى عند الصوفية

لقد شذ الكثيرون ممن ينتسب إلى التصوف عن حقيقة وأصل التصوف

وصاروا يعتقدون بأشياء مما يخالف إعتقاد المسلمين، وهذا سبب شرفاً كبيراً وتناحرًا بين الصوفية حيث قام المتصوفة الذين إلتزموا أصل التصوف بالرد عليهم والتحذير منهم. ومما يعتقدوه بعضهم:

## الكشف

ويعتمد الصوفية الكشف مصدرًا وثيقًا للعلوم والمعارف، بل تحقيق غاية عبادتهم، ويدخل تحت الكشف الصوفى جملة من الأمور المتعلقة بالروح الخالص، منها:

- ١- النبى (ص) ويقصدون به الأخذ عنه يقظة أو منامًا.
- ٢- الخضر (عليه السلام) وقد كثرت حكاياتهم عن لقياءه، والأخذ عنه أحكامًا شرعية وعلومًا دينية، وكذلك الأوراد، والأذكار والمناقب.
- ٣- الإلهام سواء كان من الله تعالى مباشرة، وبه جعلوا مقام الصوفى كما يذكرون فوق مقام الرسل حيث يعتقدون أن الولى يأخذ العلم مباشرة عن الله تعالى.
- ٤- الفراسة والتي تختص بمعرفة خواطر النفوس وأحاديثها.
- ٥- الهواتف من سماع الخطاب من الله تعالى، أو من الملائكة، أو الجن الصالح، أو من أحد الأولياء، أو الخضر، أو إبليس، سواء كان منامًا أو يقظة أو فى حالة بينهما بواسطة الأذن.
- ٦- الإسراءات والمعاريج ويقصدون بها عروج روح الولى إلى العالم العلوى، وجولاتها هناك، والإتيان منها بشتى العلوم والأسرار.
- ٧- الكشف الحسى بالكشف عن حقائق الوجود بإرتفاع الحجب الحسية عن عين القلب وعين البصر.

٨- الرؤى والمنامات وتعتبر من أكثر المصادر اعتمادًا عليها حيث يزعمون أنهم يتلقون فيها عن الله تعالى، أو عن النبي (ص) أو عن أحد شيوخهم لمعرفة الأحكام الشرعية.

٩- التلقى عن الأنبياء غير النبي (ص) وعن الشيوخ الراحلين.

### الأفكار والمعتقدات

- يعلن المتصوفة حاليًا بمعظمهم إعتقادهم حسب مبادئ العقيدة الأشعرية التي إنتشرت وسادت كمذهب عقيدى رسمى لأهل السنة والجماعة قبل إعادة إحياء الحركات السلفية لرفض أفكار التأويل الفلسفية، وبالتالي فإن كتب المتصوفة الحديثة لا تخرج عن العقيدة الأشعرية والماتريديّة، رغم إنهم ينبذون كتب «ابن عربى السهروردى» التى تتهم من قبل الحركات السلفية وبعض الباحثين المعاصرين بأنها تتضمن ما يفيد بعقائد الحلول ووحدة الوجود، لكن المتصوفة يقولون أن هذه الكتب ليست فى متناول العوام (والعوام فى نظر المتصوفة هو كل من لم يتمرس بالصوفية وممارستها) فهم غير قادرين على تذوق المعانى التى لا تتجلى إلا لمن حصل على الكشف الإلهى، بالتالى فهم وحدهم من يمتلك حق التأويل لهذه الكتب والمقولات للشيوخ الكبار مثل ابن عربى والسهروردى.

- النقطة الثانية التى ترد على لسان بعض المتصوفة هى تفضيل مرتبة الولاية على مرتبة النبوة لما فى مرتبة الولاية من إتصال بالذات الإلهية، وفى مرتبة إتصال بالبشرية.

- وفى الأولياء يعتقد الصوفية عقائد شتى، منهم من يجعلون الولى يأخذ مباشرًا من الله بدون أى واسطة، ويوهب من الله تصرفاتة المادية والروحية،

فهو يتصرف فى الكون بإذن الله. ولهم تقسيمات، والدرجات للولاية كما فى أى مجال «وفضلنا بعضهم على بعض»، فهناك:

الغوث - الأقطاب - الأبدال - النجباء

- يعتقدون أن الدين شريعة وحقيقة، والشريعة هى الظاهر من الدين، وإنها الباب الذى يدخل منه ليكون مسلمًا، والحقيقة هى الباطن الذى لا يصل إليه إلا المؤمن الصادق، وهناك درجات مثل الصديقين والشهداء والصالحين والأخيار.

- التصوف فى نظرهم طريقة وحقيقة معًا.

- لا بد فى التصوف من التأثير الروحى، وهذا ما يهمنى هنا، فهم يعتقدون فى التأثير الروحى بالإنسان الذى لا يأتى إلا بواسطة الشيخ الذى أخذ الطريقة عن شيخه.

- يتحدث الصوفيون عن العلم اللدنى الذى يكون فى نظرهم لأهل النبوة والولاية، كما كان ذلك للخضر عليه السلام، حيث ذكر القرآن: «وعلمناه من لدنا علمًا».

- بسبب الروحانية التى تميز طرق الصوفية وإعتمادها على علوم الباطن وإرتباطها بكتابات الهرمسية، كل هذا جعل منها غطاء مناسبًا للكثير من المشعوذين ومحترفى السحر الأسود.

- لقد أجمعت كل الطرق الصوفية على ضرورة الذكر، وهو عند النقشبندية لفظ الله مفردًا، وعند الشاذلية لا إله إلا الله، وعند غيرهم مثل ذلك مع الإستغفار والصلاة على النبى، وبعضهم يقول: هو هو، بلفظ الضمير. ولا بد من التأمل الروحى وتركيز الذهن فى الملاء الأعلى، وأعلى الدرجات لديهم هى درجة الولى.

- من مشاهير علماء الصوفية من أهل السنة: حسن البصرى، عبد القادر الجيلانى، ابي حامد الغزالى، الشيخ محمد بن خفيف الشيرازى الشافعى، الشيخ عز الدين بن عبد السلام المالكى، النووى، الشيخ الأكبر محمى الدين بن عربى، منصور الحلاج، ابو يزيد البسطامى، الشيخ ابن النقيب، ابي حيان الأندلسى، قطب الدين القسطلانى، الحافظ جلال الدين السيوطى.

### مولانا جلال الدين الرومى والتصوف والطريق الروحى للتصوف

نذكر هنا عن كتاب المستشرفة الفرنسية القديرة «إيفا دوفيزاى سيروفيتش» عن جلال الدين الرومى الذى أصدرته عام ١٩٧٨:

١ - مولده، حياته، طريقته، أثاره

فى عصر كان يمور بالصراعات والإضرابات الداخلية والخارجية، ولد جلال الدين الرومى، وكانت ولادته سنة ١٢٠٧م فى مدينة «بلخ» التى نسب إليها كبار العلماء والفلاسفة والفقهاء، كالفردوسى وابن سينا والغزالى. وقد غادرها أبوه «بهاء الدين ولد» الملقب بـ«سلطان العلماء» - وهو صوفى وعالم دين - سنة ١٢١٩م هرباً من الغزو المغولى القادم من الشرق الذى دمر المدينة بعد عام وأتى عليها.

توجه بهاء الدين إلى مكة لأداء فريضة الحج، وفى نيسابور، التقى الشاعر الصوفى الشهير فريد الدين العطار النيسابورى، الذى أهدى إلى جلال الدين الرومى كتاب «أسرار نامه». وظل الرومى معجباً بالشاعر الصوفى طوال عمره، وكان يردد القول: «لقد إجتاز عطار مدن الحب السبع، بينما لا أزال أنا فى الزاوية من دهليز ضيق». كان جلال الدين يدعى عادة بـ«مولانا»، أطلق عليه هذا اللقب والده بهاء الدين منذ كان صغيراً، وكذلك كان ابنه «سلطان ولد»

يخاطبه، وبهذا اللقب عرف بتركيا وفي أصقاع العالم الإسلامي كافة. أما «الرومي» فهي نسبة إلى إقامته في الأناضول بتركيا.

تتلمذ الرومي على يد برهان الدين محقق الترمذى، ثم توجه إلى حلب للدراسة، ومنها إنتقل إلى دمشق، وكان الشيخ «محي الدين بن عربي» يمضى بها السنوات الأخيرة من عمره. ويروى أن ابن عربي رأى الرومي من قبل يمشى خلف والده بهاء الدين، فقال: «يا سبحان الله! بحر يمشى خلف بحيرة!».

عاد جلال الدين إلى قونية، فإستقر فى مدرسته وتولى بها تعاليم الشريعة ومبادئ الدين والتوجية الروحي، حتى عرض له حادث غير مجرى حياته وجعله صوفيًا محترفًا بالمحبة الإلهية، كما عبر عن حاله بالقول: «كنت نيتًا، ثم أنضجت، والآن أنا محترق».

ترجع بداية ذلك عندما إلتقى جلال الدين الرومي بشمس الدين التبريزي، الدرويش الجوال، الذى وصل إلى قونية سنة ١٢٤٤م وأقام فى أحد خاناتها منقطعًا إلى نفسه، وذات يوم، تعرض شمس لموكب الرومي ومريديه، وجرت بينهما محاوره قصيره أغمى بعدها على «مولانا»! وعندما إستعاد وعيه، إصطحب شمسًا إلى المدرسة، وهناك إعتزلاً الناس فى خلوة لمدة أربعين يومًا، صار بعدها شمس الأستاذ الروحي للرومي، الذى ظل يحتفظ لأستاذه طوال حياته بحب وعرفان للجميل لا حدود لهما. وبلغ من تأثير «شمس تبريز» إنه إستحوذ على روح الرومي ومشاعره ولم يعد يصبر عنه، مما دفع مريديه، كما أشيع، إلى إغتياله سنة ١٢٤٧م.

بعد إختفاء شمس، أنشاء الرومي الحفل الموسيقى المعروف بـ«السماع»، ثم نظم فى ذكرى شيخه وأستاذه الروحي من مجموعة من الأناشيد حملت اسمه: ديوان شمس تبريزي، وهى مجموعة أناشيد، وقصائد تمثل الحب والأسى، وإن كانت فى جوهرها تنشد الحب الإلهي المقدس. إختار الرومي «حسام

الدين جلبي» أستاذًا لمريديه، وأضفى عليه قدرًا عظيمًا من الإحترام والتبجيل. وقد إقترح حسام الدين أن يؤلف الرومى رسالة شعرية تتضمن آراءه وتعاليمه، فأجابه إلى طلبه وبدأ بنظم المثنوى. فكان الرومى يرتجل وحسام الدين يكتب الأبيات وينشدها. وقد إستمر ذلك إلى أن وافت المنية الرومى سنة ١٢٧٣م.

### طريقة «الدررايش الدوارين» (المولوية)

أسس جلال الدين الرومى فى تركيا الطريقة المولوية، ونظمها بعد وفاته ابنه الأكبر «سلطان ولد». ومن سماتها وخصائصها التى عرفت بها الرقص المعروف أو السماع، الذى أعطى الأعضاء إسم «الدررايش الدوارين» الذى عرفوا به فى الغرب. كانت قونية المقر الأول للطريقة، ومنها انبعثت التكايا التى هى بمثابة فروع للمركز، وصار السلاطين والأمراء هم الذين يبنون التكايا منذ القرن العاشر الهجرى. وفى عهد السلطان سليم الثالث، شهدت الطريقة أوج مجدها وإنتشارها. لم تكن المولوية تميز بين الأديان والمذاهب، بل ترفض التعصب وتنبذه. وكان أعضاؤها ينطلقون فى جماعات إلى القرى لإسعاف الفقراء وإقامة حفلات السماع التى تعزى القلوب الحزينة.

لم تكن الطريقة فى بداية حياة الرومى مركزية تمامًا، فهناك المقر فى قونية، وله فروع من التكايا فى المناطق الأخرى. وكانت بطانة الرومى تتألف من الفنانين والحرفيين والصناع المهرة الذين كانوا يقومون بالأعمال كلها. وبدءًا من القرن (السادس عشر للميلاد)، تغيرت الطريقة، وأصبح التنظيم مركزيًا، وتولت الأوقاف تنظيمه والإشراف عليه وضبط الهبات والأعطيات المقدمة له، مما أفقده طابعه الشعبى، فصار ارسنقراطيًا يبتعد شيئًا فشيئًا عن روح مؤسسه. ويبدو أن خوف السلاطين العثمانيين من مواقف بعض الفرق الصوفية جعلهم يدعمون المولوية فى مواجهة الحركات والفرق الأخرى. ومن هنا أصبحت المولوية فى القرن الثامن عشر جزءًا من مؤسسات الدولة العثمانية.

وفى عام ١٩٢٥م، قمع مصطفى كمال (اتاتورك) كل الطرق الصوفية فى تركيا، فأصبحت تكية حلب مركزاً للتكايا الأخرى بعد قونية، ثم إستولت الأوقاف التركية على ممتلكاتها، وتحولت أكثر التكايا إلى متاحف. ومع ذلك مازالت هناك مراكز مولوية فى مصر وقبرص وليبيا وغيرها.

### تأثير الطريقة المولوية

انتشر تأثير الطريقة المولوية فى رقعة شاسعة من الأرض، تمتد ما بين أذربيجان إلى فيينا. ومع إنتشار التكايا، انتشر المثنوى وأصبح له شعراؤه المنشدون العظام، ومنهم: إبراهيم بك، سلطان ديوانى، شيخ غالب، وآخرين. كما إنتشرت الموسيقى المولوية ورقص السماع، وأثرت التقاليد الفنية للطريقة فى فنى الرسم والخط. ويعد السماع، أو الرقص الكونى للدراويش الدوارين، من أشهر فنون الطريقة المولوية. وهو طقس له رمزيته: فالثياب البيض التى يرتديها الراقصون ترمز إلى الكفن، والمعاطف السود ترمز إلى القبر، وقلنسوة اللباد ترمز إلى شاهد القبر، والبساط الأحمر يرمز إلى لون الشمس الغاربة، والدورات الثلاث حول باحة الرقص ترمز إلى الأشواط الثلاثة فى التقرب إلى الله، وهى: طريق العلم والطريق إلى الرؤية، والطريق إلى الوصال، وسقوط المعاطف السود يعنى الخلاص والتطهر من الدنيا، وتذكر الطبول بالنفخ فى الصور يوم القيامة، ودائرة الراقصين تقسم نصفى دائرة، يمثل أحدهما قوس النزول أو إنغماس الروح إلى بارئها، ويمثل دوران الشيخ حول مركز الدائرة الشمس وشعاعها، أما حركة الدراويش حول الباحة فتمثل القانون الكونى ودوران الكواكب حول الشمس وحول مركزها.

### الطريق إلى التصوف

إن بداية الطريق، كما يذكر جلال الدين الرومى، تقتضى تغييراً فى الإدراك،

وتحولاً في المعرفة، ودأباً في السؤال. والبحث الذي يهدف إلى إغناء التجربة الروحية للصوفي وعروج الروح إلى ربها في رحلة إسراء يتطلب من السالك محاولة تسلق سلم مراتب الوجود الكوني، حيث يخاطب الإنسان نفسه فيقول:

وضع أمامك سلم يمكنك من النجاة.

في الأول كنت جماداً، ثم صرت نباتاً.

ثم بعدئذ صرت حيواناً، كيف يمكن لك أن تتجاهله؟

انظر إلى هذا الجسد المصنوع من التراب، أي كمال اكتسب،

وعندما تتجاوز شرط البشرية، لاشك في إنك ستغدو ملاكاً.

وبعدئذ ستنتهي من هذه الأرض، وإقامتك ستكون في السماء.

يتبين من هذه الأبيات أن السير على طريق الصوفية يتطلب لدى المولوية إعداداً خاصاً، يخضع المبتدئ بموجبه لتدريب روي مستمر ثلاث سنوات. فإن إستجاب لكل ما يطلب منه شيخه قبل في الطريقة وأصبح واحداً من اعضائها. ويقوم المبتدئ في السنة الأولى بخدمة الناس، وفي الثانية بخدمة الحق، وفي الثالثة بمراقبة قلبه: ولا يستطيع المريد المبتدئ خدمة الناس إلا إذا نظر إليهم على أنهم أسياد وخير منه ورأى واجب عليه خدمتهم جميعاً، ولا يستطيع خدمة الحق إلا إذا تخلى عن كل غرض ذاتي سواء كان من أجل هذه الحياة الحاضرة أو الحياة الآجلة، أي التأكيد على أنه إنما يعبد الله حباً بالله فقط، وليس في مقدوره أن يحرس قلبه إلا عندما يستجمع أفكاره ويتخلى عن كل شاغل، بحيث يبقى في حديث ودي مع الله في قلبه، مواجهها هجمات الغفلة. فإن بلغ المبتدئ تلك المؤهلات يستطيع الإرتقاء إلى رتبة المتصوف الحقيقي وليس مقلداً.

## تجربة الطريق الروحي

وخلال رحلة المرید إلى التحقق الروحي وبلوغ الفضائل التي لا بد من تمثلها ونوالها، يجب عليه أن يخضع لتهديب الطريقة في التواضع والمحبة والإخلاص: ينشأ التواضع عن إدراك الوجدانية: فالله وحده موجود وكائن، وكل شيء سواه تابع له أو خاضع، وإذا كان التواضع يعنى موت شيء ما في النفس وإنقباضها، فإن المحبة الروحية إنبساط يأذن للإنسان أن يحقق الوحدة مع الناس جميعاً، ويعد الإخلاص أو الصدق قمة الفضيلتين الأخريين ويبنى عليهما، وهو يعنى رؤية الأشياء على طبيعتها الحقيقية. والفضائل الروحية تماثل الأحوال، وتتصف بالسرعة والزوال، أما المقامات فهي منازل دائمة.

والأحوال مواهب، أما المقامات فهي إكتساب. وعلى هذا النحو، يرى السائل أحواله تتغير وتصير أسهل عليه. ومن أجل كل مقام يتحمله حباً بالله راجياً فضله، سيجازى صلاحاً وإحساناً وقبولاً.

## ذكر الله

يعد الذكر المنهج الرئيسى للتصوف. وأساسه دعاء لا يتوقف، عدا الصلوات المفروضة. وقد ذكر الرومى في المثنوى: «إن المرید فى الطريق ينبغي له أن يدعو الله فى الخلوة حتى يصير كيانه كله صلاة. فالذكر هو المحور الأساسى للتصوف، والدعاء فى جوهره ذكر الله. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة ١٥٢)، وقال سبحانه: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد ٢٨).

وبحسب المرید يكون الذكر. وقد يكون فردياً، كما يكون جماعياً، حيث يجلس الدراويش حول شيخهم، ويبدؤون الذكر بتلاوة القرآن، ثم تلقى بعض القصائد الصوفية، ويعزف بالناي، ويتم الترنم ببعض اسماء الله الحسنى، ثم

يأخذ الحال بعض المتصوفة، فيبدأ الرقص أو السماع. وتؤدي الموسيقى دورًا هامًا في التأثير وبلوغ تلك الحال.

### الحب ونهاية الطريق

على أن كل شيء في الصوفية يقوم على الحب ويبنى عليه. يقول جلال الدين الرومي: «الحب هو ذلك اللهب الذي عندما يتأجج يحرق كل شيء، ولا يبقى ثمة إلا الله». ويضيف العطار: «للحب ثلاثة طرق: النار والدمع والدم». ويقول صوفي آخر: «سبب الخلق الجمال، وأول الخلق الحب». والحب عند الصوفية يمثل روح الكون. وعلة الحب توق الإنسان إلى العودة إلى منبع وجوده. والموسيقى والرقص ودوران النجوم وحركة الذرات وصعود الحياة على سلم الوجود، من جماد إلى نبات، ومن حيوان إلى إنسان وملاك وما بعده، كل ذلك مبعثه الحب، الذي هو السبيل إلى إكتشاف الأسرار. والروح الذي أبعد عن حقيقة الجوهرية يحن إلى اللقاء الذي سيظهر له أن العاشق والمعشوق شيء واحد. يقول الرومي:

جاء الحب: هو مثل الدم في عروقي ولحمي

وقد أفناني، وملأني بالمعشوق،

والمعشوق تخلل كل خلية في جسدي،

ومنى لم يبق سوى إسم، وكل شيء آخر هو هو.

إن طريق الحب في الصوفية يؤدي إلى بلوغ السالك مرحلة الإنسان الكامل أو الإنسان الكلي، الذي هو قلب الكون والذي يكون، بتخليه عن الوجود الجسدي، قادرًا على أن يكتشف في نفسه ذلك «الكثير المخفي»، بحسب الحديث القدسي، الذي يبحث عنه الإنسان في مكان آخر عبثًا، بينما هو في داخله.

## التعلم بالسؤال

سبقت الإشارة إلى أن الصوفية لم يقدموا نظرية عقلانية للتصوف. في ضوء ذلك، لم يقدم الرومي نظرية ميتافيزيقية، بل قدم منظورًا وسبيلًا للنجاة. وكان يعي أن مسئوليته هي إنقاذ النفوس من التيه، إذ يقول: «إن سمحنا لأنفسنا بأن نخلد إلى الراحة، فمن سيأتي بالعلاج لهؤلاء النيام البائسين؟» ومن هنا كان يلح على إصطحاب المرشد في الرحلة الروحية، إذ يقول: «إختر لك شيخًا، لأنه من دون الشيخ تكون الرحلة حافلة بالمحن والمخاوف والأخطار، ومن دون مرافق ستضيع في طريق كنت قد سلكته من قبل. لا تسافر وحدك في الطريق». وفي التصوف يكون الرباط بين الشيخ والمريد أساسيًا، ترسخه بيعة بين إرادتين حرتين. والشيخ الحقيقي يعمل كل ما بوسعه في سبيل مساعدة هذه النفوس «النائمة» على إكتشاف الحق المكنون في أعماقها. وفي نهاية التأهيل الذي يقوم به الشيخ، تبدأ عين الباطن بالكشف، الذي يعد المعرفة الحقيقية الوحيدة. وإلى هذه الغاية تتوجه الطرق كلها.

## مناهج التعليم الصوفى

يسمى الرومي روح الإنسان العميقة بال «الروح السامى» الذى هو حقيقة الإنسان العميقة. ولا شك أن التناغم الروحى، وتعلق الشخص بالشخص بين الشيخ والمريد، ورمزية الحكايات الأخلاقية المغزى التى تكشف عن البعد بين الإشارة المدركة والحقيقة المدلول عليها، والجدل الذى يستكشف به الطالب نفسه، والأسئلة والإجابات والحقائق التى إعتقد أنه قد جهلها، هذه جميعًا بعض من هذه المناهج أو الطرق. لتحقيق ذلك يستعمل شيوخ التصوف وسائل كثيرة لتهيئة المريد لكى «يصير على ما هو عليه ومساعدته على ولادة الروح الكامن فى نفسه الباطنة».

هو طقس صوفي ديني، يبعث في المؤدى حالاً يكون قادرًا فيه على «سمع» ذلك النداء المرسل منذ زمن من بعيد خارج الزمان، مذكرًا بعالم الألحان الأزلية. والمنطلق في ذلك هو أن نفترض أن المريدين يتمتعون بقدرات متباينة، مما يستلزم أن يتمثل عمل الشيخ في التكيف مع قابليتهم وطاقاتهم الذاتية.

### التعلم بالرمز

في هذا النوع من التعليم الصوفي، يجب على الشيخ أن يضع نفسه في مستوى المريد ليساعده على الظفر بالمعرفة. وعند جلال الدين الرومي، تتباين درجات النفوس تبعًا لمقدار ما «تتذكر»، ذلك لأنها وجدت حياتها الأرضية، وترتبط بروحية الرقص الديني بذلك التذكر. قال مولانا: «عندما يعرف روحك وروحى معرفة تامة، فإن كلا الروحين يتذكر إنها كائنًا روحًا واحدًا في الماضي، والنفوس التي تسبح الله في هذه الدنيا تفضل ذلك لأنها قد فعلته إبان وجودها الأول، وبفعلها ذلك، تذكر النفوس الأخرى بيوم اللقاء الأول».

وعلى الشيخ أن يغذى مريده بلبن المعرفة، إلى أن يصير في مقدور المريد الإستغناء عنه. ولعل التعليم بالرمز والصور والإيحاءات أحد وسائل الشيوخ في تدريب المريد وتوجيه مسيرته السالك الذي يجيب داعى الله نحو التدرج والانتقال من الوهمى إلى الحقيقى، من المرئى إلى غير المرئى، ومن الإشارة إلى المدلول.

وفي ذلك يؤكد الصوفية أن قراءة القرآن وتلاوته تمنح المسلم النقى مصدرًا للروحانية متجددًا على الدوام. وإذ ينشد المريد المعنى الخفى بحدسه وكشفه الذاتى، يدرك أن القصص مثل المكيال، وأن المعنى كالحب الذى يحتويه، والعاقل من يأخذ حب المعنى ولا يتوقف عند المكيال. ويوضح ذلك قول

جلال الدين الرومي: «لم أنظم لك المثنوى لتحفظه أو تعيده، بل إبتغاء أن تضعه تحت قدميك لتستطيع الطيران». فالمثنوى هو سلم للعروج نحو الحقيقة. وإذا كان الصوفية يستخدمون التمثيلات والصور فذلك لمساعدة الإنسان ذى القلب الهائم والعقل الضعيف على إدراك الحقيقة. فالحق، كما يقول الرومي: «وصف نفسه بـ ﴿وَالظَّهْرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الحديد ٣). وقد جلى العالم بوصفه باطنًا وظاهرًا، بحيث نستطيع إدراك المظهر الداخلى للحق - سبحانه - بباطننا والمظهر الخارجى بظاهرننا».

### تطهير النفس

وإبلوغ ذلك يؤكد الصوفية أن تجلى الله للعالم لا تدركه إلا العين المطهرة. والعين المطهرة، المفتوحة، هى التى ترى أن الكون هو كتاب الحقيقة العليا، والقلب الذى صقلته الخبرات وحده يمكن له أن يغدو المرآة الصقيلة التى تعكس الصفات الإلهية. والصفة المطلوبة فى المرآة هى تشبعها بالإيمان. ولكى تعكس الصورة تمامًا، يجب أن يكون سطحها صقيلًا جدًا. يقول الرومي: «قلبي صاف كالسما، وفى مرآة الماء ينعكس ضياء القمر». ويشبه التأثير الذى تتركه الذنوب فى القلب بالتراكم البطئ للصدأ على المعادن، أما المجاهدات فتشبه بفعلها الصقل. والقلب الطاهر، المصفى من حب الدنيا ومباهجها، فى مقدوره أن يتذكر الله - عز وجل، مما يعطى الوجود بعدًا آخر، ويعطى الحياة غاية أساسية هى الحنين إلى الحالة الروحية الأولى وإبلوغ المعرفة الحقيقية والكلية.

### حضور التصوف

من الجلى أن التصوف، وإن كان مسلکًا ذاتيًا لإكتمال مسيرة الروح وتطهيرها، فإن حضوره كان واسعًا فى مجالات الفن والثقافة والحياة الاجتماعية. وفى

الحديث: «الله جميل، يحب الجمال». ويعلق على ذلك قائلًا: «إذا كان الله يحب جمال الصور فلأنها مرآة جماله مثلما هي مرآة الوجود». ويضيف الرومي إن الجمال مقدس، وتأمله يجعل المرء يشارك في القداسة. وقد أشار الرومي كثيرًا إلى أهمية التأثير الروحي للجمال الذي يلقي بالناظر في متاهات الحيرة والدهشة.

وقدرة الفن على إيجاد المقدس تتمثل في الإعادة، والإنسان المبدع يعيد الخلق بمساعدة الشعائر. وكل صلاة تعنى أن يكون الإنسان في تناغم مع كون مقدس، يصلى فيه الطائر عندما ينشر جناحه والشجرة عندما تلقي ظلًا.

ومن المؤكد أن عددًا من الصوفية لم يكونوا مجرد نساك زهاد بل شعراء يتغنون بالمحبة الإلهية، ومنهم: عمر ابن الفارضى، العطار، سعدى، الجامى، وغيرهم ممن وضعوا العديد من الدواوين الشعرية والكتب والرسائل. كما ألهم التصوف المبدعين فى فنون الموسيقى والغناء. وكانت الطرق الصوفية جسراً بين عقلانية المراتب الصوفية العالية وبين التدين الشعبى. وشعراء التصوف هم الذين نظموا أناشيد الحب المخلص والتضرع فى اللهجات المختلفة للجماعات، مما غدا سبيلاً لتثقيف هذه الجماعات. ومن المفيد أن نشير إلى أن الطرق الصوفية أدت مهمة كبيرة فى المجتمعات النقلية فى العالم الإسلامى، كان الناس خلالها يعيشون فى ظلال الزوايا، ويستمعون إلى تلاوة القرآن وإلى أناشيد المتصوفة ويشاهدون رقصاتهم، وبذلك تؤدى الطرق الصوفية وظيفة تثقيفية وإجتماعية، حيث لا فوارق طبقية بين أبناء الطريقة وأتباعها.

### الصوفية طريق الروح فى الماضى والحاضر والمستقبل

فى نهاية الحديث عن الصوفية كطريقة وأساس سلوكى أساسى للإرتقاء

الروحي، أو أن أذكر بناء على ملاحظاتي الفكرية، أننا في حاجة إلى ثقافة صوفية وحضارة روحية بنيتها بالسلم والتعايش والعشق الرباني، والذوبان بين يدي الله عز وجل. لا يتأثر التصوف بأي عناصر أو عقائد خارجية بالرغم من أننا نجد بعض التشابه بين التصوف والعقائد الأخرى إلا أن هذا أمر طبيعي. حيث أن الحقيقة واحدة وتلتقي فيها كل المعتقدات، والمتصوف الحقيقي ملتزم التزامًا تامًا بالشريعة.

يحترم المتصوفة من المسلمين كافة الأديان واتجاهات الإستارة الروحية، فهم يبحثون عن الحقيقة الوحيدة والخالدة ألا وهي حب الله وصفاء النفس لتلقى نوره. فالتصوف هو طريق الحب فأنت لا تستطيع أن تصبح صوفياً إذا تجنبت الحب في منهجك، يجب أن يفتح قلبك ويشرق بالحب. إن التصوف مأخوذ من صفاء الأسرار ونقاء الآثار. إنه نسبة إلى الصف الأول.

ويصل الإنسان بروحه إلى الصف الأول بمجاهدة النفس ومقاومته شهواتها وليس منعها، وذلك كالذكر والمراقبة، ومحاسبة النفس والزهد في الدنيا. إن التصوف في كلمات قليلة هو: قلة الطعام، السكون إلى الله تعالى، ضبط حواسك، مراعاة أنفاسك، التأمل، الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني، إتيان مكارم الأخلاق، تجنب الأخطاء الدنيئة، وإن تكون روحك شفاقة نقية طاهرة ودائمًا في المقدمة.

التصوف الحق ليس إنعزلاً عن العالم في خلوة، أو إنصرافاً عن دنيا الناس، أو إنشغالاً بالعبادة عن قضايا المجتمع الإنساني، وإنما هو جهاد النفس والروح في أعلى ذراه، والعلم في أصفى موارد، والخلق في أعلى مثله، والقدوة الحسنة في أبهى صورها. إنه الصدق والأمانة، والإيثار والنجدة، ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف، والتعاون على البر والتقوى.

إن المعرفة الروحية التي تكتسب عن طريق الممارسات الصوفية الروحانية النقية تجعل الروح الإنسانية مليئة بالحب والشوق لمن أهداها نعمة الوجود، فمعرفة الحق الإلهي والاقتراب من نوره لهو فريضة من أقدس الفرائض على كل نفس وروح تواقفة للترقى الروحاني والاقتراب من درجة الأرواح النيرة التي هي هدف ومبتغى كل روح تقية نقية طاهرة.